﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

كلُّ شيءٍ هيِّنٌ في قُدرةِ الخلّاقِ

لمّا سألَ زكريّا عليه السلام عن كيفيَّةِ حصولِ الغلامِ معَ كِبَرِ سِنِّه وعُقْرِ امرأتِه؛ كان المناسبُ الإجابةَ عن سؤالِه بأنَّ ذلكَ الأمرَ هيِّنٌ في قُدرةِ الرَّبِّ القادرِ الَّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، مع التَّشبيه بحالِه يوم أنْ لم يكن شيئًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَيِّنٌ﴾: (هون) أصلٌ يدلُّ على سُكونٍ أو سكينةٍ أو ذُلٍّ[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63] معناهُ: يَمشونَ بسكينةٍ ووَقارٍ، لا أَشَرًا وتجبُّرًا، والهَوْنُ والهَوانُ: اللِّينُ والرِّفْقُ[2]، والهونُ بالضمِّ: الخِزْيُ[3]، ويقالُ: هانَ الأمرُ على فلانٍ: سَهُلَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾، وقال: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27][4]، والهيِّنُ بتشديدِ الياءِ: السَّهْلُ حصولُهُ[5].

2) ﴿خَلَقْتُكَ﴾: (خلق): أحدُهما: تقديرُ الشَّيءِ، والآخرُ: مَلاسةُ الشَّيءِ[6]، وأصلُ الخَلْقِ التَّقديرُ المستقيمُ، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِنْ غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعَهما، ويُستعمَلُ في إيجادِ الشَّيءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هون).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هون).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (هون).
(4) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (هون).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 72.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).

مِنَ الشَّيءِ، نحوُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وليسَ الخَلْقُ الَّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ، وأمّا الَّذي يكونُ بإيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ فقد جعلَهُ اللّهُ لغيرِه في بعضِ الأحوالِ، كقولِه لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: 110]، والخَلْقُ لا يُستعمَلُ في الإنسانِ إلّا على وجهينِ: أحدُهما في معنى التَّقديرِ كما مرَّ، والثّاني في الكذبِ، كقولِه: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17]، وفي معنى المَلاسةِ يقالُ: صخرةٌ خَلْقاءُ، أي: مَلْساءُ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قالَ اللّهُ تعالى: الأمرُ كما قلتَ يا زكريّا، فسنَهَبُ لكَ الولدَ معَ ما أنتَ وزوجُكَ عليه مِنَ العُقْرِ والشَّيخوخةِ، فخَلْقُ ولدٍ منكما على هذه الحالِ هيِّنٌ، فإنّي إذا أردتُ شيئًا كانَ دونَ توقُّفٍ على الأسبابِ العاديَّةِ، وليسَ خَلْقُ الغُلامِ الَّذي وعدتُكَ أنْ أهبَهُ لكَ معَ كِبَرِ سِنِّكَ وعُقْرِ زوجِكَ بأعجبَ مِنْ خَلْقي لكَ مِنَ العَدَمِ، والقادرُ على خَلْقِ الذَّواتِ والصِّفاتِ مِنَ العَدَمِ المَحْضِ يكونُ أجدرَ بالقُدرةِ على تبديلِ الصِّفاتِ بخَلْقِ الولدِ مِنَ الشَّيخِ والشَّيخةِ[2].

القادرُ على الخَلْقِ مِنَ العَدَمِ قادرٌ على تبديلِ الصِّفاتِ وإفاضةِ الهِباتِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جرى على طريقةِ المُحاوَرةِ، وذلكَ أنَّهُ تعالى لمّا أخبرَ أنَّهُ بشَّرَ زكريّا عليه السلام بالولدِ، ثمَّ أخبرَ عن سؤالِ زكريّا عن كيفيَّةِ حصولِ ذلكَ مع انتفاءِ الأسبابِ العاديَّةِ للإنجابِ - كأنَّ سائلًا سألَ فقالَ: بماذا أخبرَ اللّهُ تعالى نبيَّهُ؟ فأُجيبَ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ

فصلُ الآيةِ لكونِها جوابًا عن سؤالٍ نشأَ ممّا قبلَها

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 36.

هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[1]، فيكونُ الفصلُ لشِبْه كمالِ الاتِّصالِ.

تعيينُ قائلِ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾:

القائلُ هو اللهُ تعالى على الرّاجحِ

الرّاجحُ أنَّ قائلَ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ هو اللهُ تعالى، بدليلِ ما قبلَهُ وما بعدَهُ.

وقيلَ: إنَّ القائلَ لذلكَ مَلَكٌ، وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ ما قبلَ هذا الكلامِ وما بعدَهُ قولُ اللهِ تعالى، فلا يصحُّ إدراجُ هذه الألفاظِ فيما بينَ كلامِه ﷻ؛ لئلّا يَفْسُدَ نظمُ الكلامِ[2].

إعرابُ الكافِ في قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الكافُ في محلِّ رفعٍ أو في محلِّ نصبٍ

اختُلِفَ في إعرابِ الكافِ في قولِه ﷻ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:

فقيلَ: الكافُ في محلِّ رفعٍ، أي: الأمرُ كذلكَ، ويكونُ الوقفُ على ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ثمَّ يُبتدَأُ بقولِه: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾[3].

وقيلَ: الكافُ في محلِّ نصبٍ بـ ﴿قَالَ﴾ الثّاني، أي: قالَ لزكريّا: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قولاً مِثلَ ذلكَ[4].

تعيينُ المُشارِ إليه في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تعدُّدُ المعاني بتعدُّدِ احتمالاتِ مرجعِ المُشارِ إليه

اختُلِفَ في بيانِ مرجعِ الإشارةِ في ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:

فقيلَ: الإشارةُ إلى مُبهَمٍ في الذِّهنِ يُفسِّرُهُ قولُهُ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾،

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 580، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 514، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 146، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 571.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 577.

أي: قالَ ربُّ زكريّا: قالَ ربُّكَ قولًا مِثلَ ذلكَ القولِ الغريبِ؛ وهو ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[1].

وقيلَ: الإشارةُ إلى ما تقدَّمَ مِنْ وعدِ اللّهِ، أي: قالَ لهُ ربُّهُ سبحانَهُ: قالَ ربُّكَ مِثلَ ذلكَ القولِ العجيبِ الَّذي وُعِدْتَهُ وعُرِّفْتَهُ؛ وهو ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾[2].

وقيلَ: الإشارةُ إلى قولِ زكريّا عليه السلام: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، أي: الأمرُ كما قلتَ مِنْ كِبَرِكَ وعُقْرِ امرأتِكَ، وجملةُ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤالٍ ناشئٍ عن قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ تقريرَ منشأِ التَّعجُّبِ يُثيرُ ترقُّبَ السّامعِ أنْ يعرفَ ما يُبطِلُ ذلكَ التَّعجُّبَ، وذلكَ كونُهُ هيِّنًا في جانبِ قُدرةِ اللّهِ تعالى العظيمةِ[3].

وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ المُشارُ إليه هو القولَ المأخوذَ مِنْ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: أنَّ قولَ ربِّكَ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ بلغَ غايةَ الوضوحِ في بابِه بحيثُ لا يُبيَّنُ بأكثرَ ممّا علمتَ، فيكونُ جاريًا على طريقةِ التَّشبيهِ، كقولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، وجملةُ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ تعليلٌ لإبطالِ التَّعجُّبِ إبطالًا مستفادًا مِنْ قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾[4].

نكتةُ استعمالِ اسمِ إشارةِ البعيدِ:

تفخيمُ المعاني وتعظيمُها يُناسبُه الإشارةُ بالبعيدِ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الإشارةِ للبعيدِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (كذا قالَ ربُّكَ) أو نحوَه؛ لتعظيمِ المُشارِ إليه[5]، لا سيَّما والمقامُ مقامُ بيانِ قُدرةِ اللّهِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 199.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 387.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 580، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 199.

ﷻ على خَلْقِ الولدِ معَ انعدامِ الأسبابِ العاديَّةِ، وذلكَ ممّا يناسبُهُ التَّفخيمُ والتَّعظيمُ.

علَّةُ فصلِ جملةِ القول:

الفصلُ على طريقةِ المحاوراتِ

فُصِلَ قولُهُ: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ عن قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّهُ ابتداءُ كلامٍ استُؤنِفَ جوابًا لما يقالُ: فماذا قالَ اللّهُ جلَّ شأنُهُ بعدَ تصديقِهِ زكريّا؟ فأُجيبَ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[1]، فيكونُ بينَ الجملتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وهو يقتضي الفصلَ.

دلالةُ تَكرارِ فعلِ القولِ:

الاعتناءُ بكلا القولينِ بتَكرارِ فعلِ القولِ

كُرِّرَ فعلُ القولِ في قولِه ﷻ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ولم يُقتصَرْ على فعلٍ واحدٍ بأنْ يقالَ: (قالَ كذلكَ هو عليَّ هيِّنٌ)؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بكلا القولينِ[2]، وأنَّ كلًّا منهما مقصودٌ لذاتِه للمتكلِّمِ، لا أنَّ أحدَهما تَبَعٌ للآخرِ، وذلكَ أنَّ المتكلِّمَ إذا سَمِعَ فعلَ القولِ مرَّتينِ عَلِمَ أنَّ في كلِّ مرَّةٍ كلامًا جديدًا هو مَحَطُّ عنايةِ المتكلِّمِ، ولو لم يُكرِّرْ لربَّما ذُكِرَ الثّاني في دَرْجِ الكلامِ دونَ أنْ يلتفتَ إليه السّامعُ.

فائدةُ إسنادِ القولِ إلى ﴿رَبُّكَ﴾:

تحقيقُ حُصولِ البِشارةِ الصّادرةِ عنِ الرَّبِّ المُحسِنِ الكريمِ

أُسنِدَ فعلُ القولِ إلى الرَّبِّ جلَّ وتباركَ في قولِهِ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (قالَ هو عليَّ هيِّنٌ)، أو (قلتُ هو عليَّ هيِّنٌ)؛ للإشعارِ مِنْ خلالِ التَّصريحِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ بأنَّ قولَ ربِّكَ حقٌّ، ووعدَهُ صِدْقٌ[3]، كما أنَّ السُّلطانَ العظيمَ إذا وعدَ عبدَهُ شيئًا عظيمًا، فقالَ العبدُ: مِنْ أينَ يحصلُ لي هذا؟ يقولُ: إنَّ سُلْطانَكَ ضَمِنَ لكَ هذا، كأنَّهُ يُنبِّهُ بذلكَ على أنَّ كونَهُ سُلْطانًا ممّا يوجِبُ

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 531، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 146.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 146.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 580.

عليه الوفاءَ بالوعدِ[1]، ولِما في لفظِ الرُّبوبيَّةِ مِنَ الإشارةِ إلى الإحسانِ المناسبِ لمقامِ تحقيقِ الوعدِ[2]، ولتربيةِ المَهابةِ، كقولِ الخُلَفاءِ: (أميرُ المُؤمنينَ يَرْسُمُ لكَ) مكانَ قولِهم: (أنا أرسُمُ)[3].

نكتةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّة إلى كافِ الخطابِ:

مَنْ كانَ في كَنَفِ الرُّبوبيَّةِ شُرِّفَ وحصلَ مُبتغاهُ

أُضيفَ الرَّبُّ إلى ضميرِ زكريّا ﷺ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ تشريفًا لهُ، وإشعارًا بعلَّةِ الحكمِ؛ فإنَّ التَّذكيرَ بجَرَيانِ أحكامِ رُبوبيَّتِه تعالى عليهِ؛ مِنْ إيجادِه مِنَ العَدَمِ، وتقليبِه في أطوارِ الخَلْقِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ شيئًا فشيئًا إلى أنْ يَبْلُغَ كمالَهُ اللّائقَ بهِ؛ يُؤكِّدُ حصولَ الموعودِ بهِ، ويورِثُ زكريّا ﷺ الاطمئنانَ بإنجازِه[4].

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى التَّكلّمِ:

مَدارُ كونِ الخَلْقِ هيِّنًا هو قُدرتُهُ تعالى الذّاتيَّةُ

في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ انتقالٌ مِنَ الغَيبةِ في قولِه: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ومُقتضى الظّاهرِ: (هو عليه هيِّنٌ)[5]، وفي هذا الالتفاتِ إيذانٌ بأنَّ مَدارَ كونِ خَلْقٍ يحيى هيِّنًا عليه سبحانَهُ هو القُدرةُ الذّاتيَّةُ لا رُبوبيَّتُهُ تعالى لزكريّا ﷺ خاصَّةً، وفيه تمهيدٌ لما يَعْقُبُهُ؛ وهو قولُهُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[6].

أو أنْ يُحملَ الكلامُ على الخبرِ، أي أنَّ قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ هو ما قاله اللّه تعالى، فيكون التَّكلُّمُ عبارةً عن مضمونِ الخبر، فلا التفاتَ حينئذٍ، وهو الأظهرُ.

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 514.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 176، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4614.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 72.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257.

مرجعُ الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾:

يرجعُ الضَّميرُ إلى قضيَّةِ خَلْقِ يحيى عليه السلام

الضَّميرُ ﴿هُوَ﴾ في قولِه عزَّ وتباركَ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ راجعٌ إلى خَلْقِ يحيى عليه السلام مِنْ زكريّا عليه السلام وامرأتِه، وهما على تلكَ الحالةِ مِنَ العُقْرِ وكِبَرِ السِّنِّ، أي: قالَ ربُّكَ: خَلْقُ يحيى معَ وجودِ هذه الموانعِ في أُمِّه وأبيه هيِّنٌ يسيرٌ في جانبِ قُدرتي[1].

غرَضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيَّ﴾:

الخلقُ على اللهِ تعالى هيِّنٌ دون سواه

لمّا كانَ خَلْقُ يحيى عليه السلام معَ غيابِ الأسبابِ العاديَّةِ لحصولِ الولدِ أمرًا عجيبًا، لا تُتصوَّرُ القُدرةُ عليه إلّا مِنَ الخالقِ المعبودِ عز وجل؛ جيءَ للدَّلالةِ على ذلكَ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيَّ﴾ في قولِه عزَّ شأنُه: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: هو عليَّ خاصَّةً هيِّنٌ[2].

بلاغةُ المجازِ في مُفردةِ: ﴿هَيِّنٌ﴾:

إطلاقُ لفظِ الهيِّنِ في حقِّ اللهِ عز وجل في قولِه: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ مجازٌ؛ لأنَّ ذلكَ إنَّما يجوزُ في حقِّ مَنْ يجوزُ أنْ يَصْعُبَ عليه شيءٌ، والمرادُ هنا أنَّهُ جلَّتْ قُدرتُهُ كاملُ القُدرةِ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، وإنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئًا أنْ يقولَ لهُ كُنْ فيكونُ[3]، إضافةً إلى أنَّ في التَّعبيرِ بلفظِ ﴿هَيِّنٌ﴾ إشارةً إلى أنَّ خَلْقَ يحيى عليه السلام سهلٌ عليه سبحانَهُ، لا يُثيرُ عجَبًا ولا استغرابًا، وهذا يتناسبُ معَ مقامِ بيانِ كمالِ القُدرةِ[4].

إطلاقُ لفظِ الهيِّنِ في حقِّه تعالى مجازٌ عن كمالِ القُدرةِ

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

احتمالُ الواوِ للاستئنافِ والحالِ

نوع الواوِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ إمّا أن تكون استئنافيَّة، والجملةُ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لما قبلَها[5]، أو حاليَّة، والجملةُ

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 162، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 176، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4614.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 176.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 514، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 389، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9038.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4615.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 573، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257.

في موضعِ الحالِ مِنْ ضميرِ الغَيبةِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: إيجادُ الغُلامِ لكَ هيِّنٌ عليَّ في حالِ كوني قد خلقتُكَ مِنْ قبلِ هذا الغُلامِ ولم تكُ شيئًا[1].

بلاغةُ تحقيقِ المعاني بأداةِ ﴿وَقَدْ﴾ والماضي:

يدلُّ استعمالُ ﴿وَقَدْ﴾ والفعلِ الماضي في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ على تحقُّقِ خَلْقِ زكريّا عليه السلام في الزَّمنِ الماضي بعدَ أنْ لم يكنْ شيئًا، وذلكَ لأنَّ (قد) معَ الفعلِ الماضي للتَّحقيقِ، وصيغةَ الماضي تدلُّ على الحدثِ - وهو هنا الخَلْقُ - في الزَّمنِ الماضي، وهذا يتناسبُ معَ مقامِ بيانِ دليلِ قُدرتِه جلَّ وعزَّ على الخَلْقِ؛ لما فيه مِنَ الإشارةِ إلى أمرٍ قد تقدَّمَ، ولا شكَّ للسّامعِ في حصولِه.

تحقُّقُ خَلْقِ زكريّا عليه السلام فيما مضى مِنَ الزَّمانِ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

قرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿خَلَقْنَاكَ﴾ بالنّونِ والألفِ على لفظِ الجمعِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿خَلَقْتُكَ﴾ بالتّاءِ مضمومةً مِنْ غيرِ ألفٍ على لفظِ التَّوحيدِ[2]، والمعنى على القراءتَينِ واحدٌ، لكنَّ قراءةَ حمزةَ والكِسائيِّ تفيدُ التَّعظيمَ بإسنادِ الفعلِ إلى نونِ العَظَمةِ[3]، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ بيانِ القُدرةِ.

استفادةُ التَّعظيمِ مِنَ القراءةِ بلفظِ الجمعِ

توجيهُ نسبةِ الخَلْقِ مِنَ العَدَمِ إلى زكريّا لا إلى آدمَ عليه السلام:

نُسِبَ الخَلْقُ مِنَ العَدَمِ في قولِه جلَّ وتقدَّسَ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ إلى زكريّا عليه السلام، ولم يُنسَبْ إلى آدمَ عليه السلام وهو المخلوقُ مِنَ العَدَمِ حقيقةً، بأنْ يقالَ: (وقد خلقتُ أباكَ أو آدمَ مِنْ قبلُ ولم يكُ شيئًا)؛ لتأكيدِ الاحتجاجِ بهِ، حيثُ نُبِّهَ على أنَّ كلَّ فردٍ مِنْ أفرادِ

ما جرى لآدمَ عليه السلام جارٍ في الكلِّ بطريقِ الاستتباعِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 72.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 317.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 84، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 243.

البشرِ لهُ حَظٌّ مِنْ إنشائِه ﷻ مِنَ العَدَمِ؛ إذ كانَتْ فِطْرتُهُ البديعةُ أُنموذجًا مُنطويًا على فِطْرةِ سائرِ آحادِ الجنسِ انطواءً إجماليًّا مُستتبِعًا لجَرَيانِ آثارِها على الكلِّ، فكانَ إبداعُهُ ﷻ على ذلكَ الوجه إبداعًا لكلِّ أحدٍ مِنْ فُروعِه كذلكَ، ولأنَّ عدمَ زكريّا ﷻ أظهرُ عندَهُ وأجلى، وحالُهُ أولى بأنْ يكونَ مِعْيارًا لحالِ ما بُشِّرَ بهِ؛ توفيةً لمقامِ الامتنانِ حقَّهُ، فكأنَّهُ قيلَ: وقد خلقتُكَ مِنْ قبلُ في تضاعيفِ خَلْقِ آدمَ ولم تكنْ إذ ذاكَ شيئًا أصلًا، بل كنتَ عدمًا بَحْتًا[1].

دلالةُ واوِ الحال:

الواوُ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ للحالِ، والجملةُ حاليَّةٌ، والمعنى: وقد خلقتُكَ مِنْ قبلُ والحالُ أنَّكَ لم تكُ شيئًا[2].

لطيفةُ حذفِ النّونِ:

الإشارةُ إلى عدميَّةِ الموجوداتِ قبل خلْقِها

أوجزَ فعلُ ﴿تَكُ﴾ بحذفِ النّونِ في قولِه جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، ولم يُقَلْ: (ولم تكنْ شيئًا)؛ ليَثْبُتَ أنَّهُ ليسَ لهُ مِنْ ذاتِه إلّا العَدَمُ المَحْضُ، ويُنفى أنْ يكونَ لهُ مِنْ ذاتِه وجودٌ ولو على أقلِّ درجاتِ الكونِ، وهذا يناسبُ مقامَ إظهارِ قُدرةِ اللّه تعالى، وإزالةِ تعجُّبِ زكريّا مِنْ حصولِ الولدِ لهُ ولزوجِه وهما على هذا الحالِ مِنَ العُقْرِ والشَّيخوخةِ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْقُ والذَّرْءُ والبَرْءُ:

الخَلْقُ أعمُّ مِنْ حيثُ الإسنادُ، وفي الذَّرْءِ معنى البَثِّ والتَّكثيرِ، وفي البَرْءِ معنى الإظهارِ

الخاءُ واللّامُ والقافُ يدلُّ على تقديرِ الشَّيءِ[4]، وأصلُ الخَلْقِ التَّقديرُ المستقيمُ، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِنْ غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 382.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 573، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 176.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 176.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).

1]، أي: أبدعَهما، ويُستعمَلُ في إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، نحوُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وليسَ الخَلْقُ الَّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ، وأمّا الَّذي يكونُ بإيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ فقد جعلَهُ اللّهُ لغيرِه في بعضِ الأحوالِ، كقولِه لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: 110]، والخَلْقُ لا يُستعمَلُ في الإنسانِ إلّا على وجهينِ: أحدُهما في معنى التَّقديرِ كما مرَّ، والثّاني في الكذبِ، كقولِه: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17][1].

والبَرْءُ هو تمييزُ الصّورةِ، وقولُهم: (برأَ اللّهُ الخَلْقَ) معناهُ: ميَّزَ صوَرَهم، وأصلُهُ القَطْعُ، ومنهُ: بَرِئْتُ مِنَ المَرَضِ، كأنَّهُ انقطعَتْ أسبابُهُ عنكَ، وبرأَ اللَّحمَ مِنَ العَظْمِ: قطعَهُ[2].

والخالقُ هو القادرُ الموجِدُ مِنَ العَدَمِ، والبارئُ خُصَّ بوصفِ اللّه تعالى؛ فهو أخصُّ مِنَ الخالقِ[3].

وأصلُ الذَّرْءِ الإظهارُ، ومعنى (ذرأَ اللّهُ الخَلْقَ): أظهرَهم بالإيجادِ بعدَ العدمِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: 179]، وقالَ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136][4].

والحاصلُ أنَّ هذه الألفاظَ الثَّلاثةَ تشتركُ في معنى الإيجادِ مِنَ العَدَمِ، وينفردُ الذَّرْءُ والبَرْءُ بأنَّهما لا يُضافانِ لغيرِه سبحانَهُ، وأمّا الخَلْقُ فقد يُضافُ إلى غيرِه إذا كانَ بمعنى إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، ويُلحَظُ في الذَّرْءِ معنى البَثِّ والتَّكثيرِ، كقولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: 11]، ويُلحَظُ في البَرْءِ معنى الإظهارِ كما تقدَّمَ.

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 270.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138، والراغب، المفردات: (ذرأ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»